من تراب الطريق (٤٩٧) ماذا جرى لنا ! (*)

جرت عيناى ، فى الأيام الثلاثة الأخيرة ، على صفحات الحوادث فى صحفنا القومية والحزبية والمستقلة ، فهالنى ما بات فيها من أخبار الجريمة التى لم تقتصر على ارتفاع وتزايد معدلاتها ، وإنما على طروء أنواع من الجرائم تشف عن خلل هائل وعميق ومتجذر أصاب الفئات المهمشة وغير المهمشة من المجتمع ..

تفاصيل مثيرة عن حادث مقتل زوجين طاعنين فى السن ، قتلة بشعة ، الزوج فى الخامسة والسبعين ، والزوجة فى الستين ، فى قرية وادعة من قرى مركز كرداسة .. المفاجأة الموجعة أن تكشف التحريات عن أن مرتكبى هذه الجريمة البشعة : حفيدة القتيلة ، وهى فى الثامنة عشرة ، بمعاونة زوجها العامل ابن العشرين .. قتلاهما بأجنة حديدية انهالا بها على رأسيهما وهما يجلسان إليهما يحتسيان الشاى الذى صنعاه لهما ، ويأكلان الفاكهة التى قدماها إليهما . ولكن لماذا ؟! لماذا هذه الوحشية والغدر ؟! ما الذى يجعل الإنسان يشذ عن باقى المخلوقات فيقتل نوعه بل أصوله ، بينما نرى قطعان الأسود والنمور والجاموس والتياتل والخراتيت والضباع وكافة أنواع الوحوش والضوارى ، يتحامى كل منهم فى قطيعه ، فلا يقتل انواحد أحداً من نوعه ، بل يقاتل عنه ومن أجله ، فما الذى جعل الحفيدة تقتل جدتها وجدها ، وتزين هذه الجريمة أو يزينها لها زوجها .. ما هى الحاجة ، وما هو

(*) المال ٢/ ١١/ ٢٠١٠

الباعث الذى خرج بهما عن أبسط مبادئ الإنسانية إلى هذه الوحشية التى أهدرت وسفكت وسفحت القرابة والصلة وقابلت الإحسان والضيافة بالغدر والخيانة والقتل !! قيل على لسان القاتلين إنهما يمران بضائقة مالية ، ترى ماهى ؟! قالا إنهما فشلا فى سداد أقساط منقولات الزوجية ، ولم يجدا سبيلا ، إلاّ بهذه القتلة البشعة ، لسرقة صندوق مصوغات الجدة ، دون أن ينسيا خلع ما كان فى معصمها من مصاغ قبل أن يفرّا هاربين !

وفى مجال التعليم ، تتحول العلاقة بين العاملين فى محرابه ، إلى «ملاكمة «دعت مدير إحدى المدارس ، بأحد أحياء القاهرة ، إلى الاعتداء باللكمات والركلات التى أدت إلى إجهاض مدرسة لأنها تجرأت وشكت للإدارة التعليمية من عدم مساواتها فى توزيع الحصص بينها وبين زميلاتها ! بينما تحمل الأخبار نبأ مدرسة تحولت إلى وحش كاسر ، فجعلت تضرب تلميذتها التى تجاوزت العاشرة بالكاد ، ضرباً مبرحاً أحدث إصابات وكدمات فى أجزاء متفرقة من جسمها لم تجد أسرتها إزاءها إلاّ أن تذهب بابنتها الطفلة المجنى عليها إلى النيابة العامة ! بينما تحمل الصحف نبأ اقتحام ضابط لمدرسة بأسيوط ليعتدى بحرم المدرسة على أحد المدرسين بالضرب لخلافات بين زوجة الضابط المدرسة بالمدرسة وبين زميلها المدرس المعتدى عليه ! بينما نرى فى الأخبار نبأ طالب بإحدى المدارس الثانوية بشبرا الخيمة يحاول الدخول إلى مبنى الطالبات ، فلما نهاه أحد المدرسين ، لم يجد إلاّ أن يخلع ملابسه ويتعدى بالسب على المدرس الذى حال بينه وبين ما يريد !!

ويبدو أن التعليم قد صار نهباً للجريمة والمجرمين ، وصار تزوير النتائج لا يكتفى بالغش فى لجان الامتحانات ، وقد صار ظاهرة جماعية ، وإنما انطلق

إلى عالم جديد قوامه السطو والاقتحام ، كشأن السرقة بالإكراه ، فتحمل الأخبار نبأ طالب بكلية الهندسة بجامعة الإسكندرية ، قام باقتحام مبنى الكنترول وتزوير ثلاث كراسات إجابة . كشف هذا الاقتحام عن جريمة أخرى هى بلوغ علم الطالب برسوبه فى المواد الثلاث ، فانتهز انتهاء اليوم الدراسى ليجرى عملية الاقتحام وتزوير كراسات الإجابة ليغيّر النتيجة !!

ويبدو أن المذابح العائلية قد صارت سنة متبعة تعكس تردى أحوال وروابط الأسرة المصرية ، فلم يكن قتل الجدة والجد بيد الحفيدة وزوجها هو كل حصاد الجرائم العائلية هذا الأسبوع ، فحملت الأخبار نبأ إحالة مرتكب مذبحة أسرته بالمطرية إلى محكمة الجنايات ، بعد أن تحول سعيه لمصالحة زوجته ، إلى جريمة قتل بشعة حصد فيها أرواح صهره وابنة زوجته دون أن ينسى إصابة زوجته وأمها بإصابات بالغة ، ويعلم الله هل امتدت نيته إلى الشروع فى قتلهما أم اكتفت أصلاً بالإصابة . هذا بينما أودع بمستشفى الأمراض العقلية تاجر الأخشاب الذى أدار مذبحة فى دمياط حصد فيها أرواح زوجته وأمها وابنتها وشرع فى قتل أولاده وأمين الحزب الوطنى السابق وأحد المارة !

ولما قيل إنه بسبب خلافات مالية ، يكشف بلاغ اختفاء طفل فى قنا ، تلقت أمه مكالمة تليفونية على هاتفها المحمول من إحدى الدول العربية عن خطفه وطلب الخاطف ربع مليون جنيه فدية لإعادته مع التحذير المشدد من إبلاغ الشرطة ، وتكشف التحقيقات عن أن الخاطف المدبر هو ابن عم والد الطفل المخطوف ، بمعاونة ابن عمهما المزارع ، حيث نجحت الشرطة بعد لأيٍ فى الاهتداء إلى مكان إخفاء الطفل ، وإعادته إلى أمه !

ولم يكفنا تلوث البيئة التى ضرب تلوثها فى الحيوان والنبات والإنسان ، فأقدم راعى أغنام تسممت ماشيته ونفقت أقدم على بيعها إلى الجزارين لينتقل السم مع اللحم الذى عَز إلى أجواف الآدميين !

وآخر مات ضميره ، لم يكد ينتهى من تنفيذ حكم بالسجن سبع سنوات عن جناية تخابر ، حتى احترف سرقة السيارات ، وجعل مع عاطل ينتحل صفة ضابط مخابرات لسرقة السيارات وبيعها بأوراق مزورة لتاجر أدوات صحية بالبساتين !

ومن عالم الجريمة الفردية إلى عوالم الجرائم الجماعية ، تحمل الصحف أخبار قتال عنيف دار بين أصحاب المحلات فى شارع رمسيس بوسط القاهرة ، تبادلوا فيه إطلاق الرصاص ، حيث أصيب سبعة أفراد من الطرفين . الغريب أن هذا القتال بالأسلحة النارية نشأ عن مستصغر شرر حين عجز أصحاب محلات قطع غيار السيارات وورش الدوكو والميكانيكية عن التفاهم لتنظيم استخداماتهم لجانبى الشارع ، فحل التراشق بالأعيرة النارية والشوم والحجارة ، محل الحوار والتفاهم ، مع أن المتقاتلين أصحاب جيرة ممتدة لسنوات بل لعشرات السنين ، فى مظلة مجتمع يتواصى بالجيرة والجار ، ويتبادل بالأقوال والملصقات أحاديث إسلامية ومسيحية توصى بالجار ، فنسوها بما فيها حديث رسول القرآن عليه السلام : « **مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه** »!

لم يعد يكفى أن نشعر بالاكتئاب مما صار مدويًا زاعقًا مؤسفًا من حولنا .. هناك ظواهر طفحت ، تستطيع إجمالاً أن تردها إلى الفقر والجهل والبؤس والمعاناة ، ولكنها لايجوز أن تؤخذ على الإجمال ، وواجب على علماء النفس

والاجتماع وكل المعنيين بالشأن العام أن يدرسوا ويتدارسوا أسباب هذا الطفح الذى طفق يتفشى فى حياتنا ، وينذر إن لم نتدارك أسبابه ! بأوخم العواقب التى لن ينجو من عوادمها وويلاتها أحد !